إضاءةٌ على القصَّةِ **(يوضع نصُّ الاستماعِ في دليلِ الأنشطةِ)**

شهدَت شجرةُ البُطْمِ، الَّتي تشمخُ في تلِّ العزيزيّاتِ، فصولَ حكايةِ الأبِ الجنديِّ وابنِه الضَّابطِ الذي عُيِّنَ رئيساً على أبيهِ، واجتمعا في خندقٍ واحدٍ لمقارعةِ العدوِّ الصِّهيونيِّ، وهو أمرٌ ـ لاشَكَّ ـ مُشرِّفٌ لأيِّ أبٍ وابنِهِ، لولا العلاقةُ الشَّائكةُ التي تجمعُ بينهما في التَّراتُبيَّةِ العسكريَّةِ.

تتوالى فصولُ الحكايةِ بتأخُّرِ الأبِ الجنديِّ عن الاجتماعِ، وبعد حديث الضَّابطِ الابنِ وأبيه الجنديِّ حولَ سببِ تأخُّرِه، يأتي المسؤولُ عن المكانِ ويسألُ الابنَ الضَّابطَ مستهجِناً وجودَ الجنديِّ عنده، ثمَّ ينشغلُ بالهاتفِ قبل مجيْءِ الجوابِ الذي لن يأتيَ، وقد وجدَ رسلانُ في انشِغالِ الضَّابطِ الرئيسِ فرصةً للتهرُّب من الجوابِ وكشفِ حقيقةِ أنَّ الجنديَّ هو والدُهُ، ويقعُ الاختيارُ على الجنديِّ الأبِ ليقومَ بمهمَّةِ الرَّصدِ، ويكمُنُ الجنودُ للصَّهاينةِ وتحتدمُ المعركةُ ويتلقَّى الصَّهاينةُ صفعةً قاسيةً، لكنَّ الرَّاصدَ(الأبَ) يبقى في المقدّمةِ ويرفضُ التَّراجُعَ ويصلُ خبرُ جُرحِهِ، فيُحمَلُ إلى تحتِ شجرةِ البُطْمِ التي تشهدُ صُعودَ روحِهِ إلى السَّماءِ، لتبقى الشَّجرةُ بجذعِها العجوزِ وأوراقِها المثقَّبةِ بالرَّصاصِ رمزاً للثَّباتِ والرُّسوخِ في الأرضِ مهما اشتدَّتْ مِن حولِها الرِّياحُ.

المقتطفُ

تحتَ شجرةِ البُطْمِ كانَ أبي يستلقي في نقّالةٍ خشبيَّةٍ،.. نهضَ من النَّقّالةِ ثُمَّ تساءَل مستنكِراً:

لماذا أتيتُ إلى هنا؟ أَلِأُحملُ كالأطفالِ؟!

- مهلاً يا أبي... انتظرْ قليلاً سنرجِعُ الآنَ معاً.
- أرادَ الكلابُ أن يفاجِئوني.. ارفعوا أيديَكُم عن صدري.. لسْتُ جريحاً.. أريدُ ماءً فقط...

وأخذَ يبلعُ ريقَهُ.. والآنَ ماذا تريدُ منِّي؟ لماذا لا تتركُنِي أمضي في طريقي؟ اتركْني أموتُ على السِّلاح... أينَ بندقيَّتي؟ وأَغمضَ عينيه وأَخذَ يُغَمْغِمُ...

- لقد أقسمْتُ في يومٍ ما ألَّا أموتَ إلَّا على السِّلاحِ، وألَّا أهجُرَ رفيقي في المعركَةِ، وأنْ أناضلَ حتَّى الرَّمقِ الأخيرِ.. وأن.. أينَ البندقيَّةُ؟
- ها هي خذْ.
- دعْهَا الآنَ كيما أستريحَ... هل تظنُّني جُرِحْتُ؟ لقد أقسمتُ أنْ أحترمَ أجدادي.. أينَ جَدِّي؟ لقد شَنَقَهُ الأتراكُ، وأينَ جدُّكَ؟ أعدمَهُ الفرنسيُّون.. لقد ماتوا من دونِ أن يتركوا لنا سوى الأملِ، آمالِهم جميعاً.. أينَ المطرةُ؟

وسكبتُ فوقَ وجهِهِ الماءَ، فتنهَّدَ وأطبقَ شفتَيهِ.. وأخذَ ينظُرُ إليَّ:

- لقد ماتَ جدُّكَ من دونِ أن يطلبَ إليَّ أن أبنيَ لهُ قبراً من رُخام، كانَ يريدُني فقط أنْ أُتِمَّ الرِّسالةَ التي بدأَها.

هأنذا لم أمتْ.. ولن أموتَ ما دمتَ أنتَ ولدي، ستسلُكُ الطَّريقَ نفسَها. ورفعَ يدَهُ وتحسَّسَ وجهي.. دعْني أستريحُ ولا تجعلْ لموتي ضجَّةً إنَّنا نفقدُ شرفَ التَّضحيةِ عندما نندُبُ فوقَ رؤوسِ شهدائِنا.. دعْنا نموتُ بصمتٍ فذلك عملٌ خالدٌ.

ورفعَ رأسَهُ ومدَّ يدهُ إلى الأرضِ وغرسَ ساعدَه في التُّرابِ.

- انظرْ إلى هذا التُّرابِ، كنتُ أسكنُ فيهِ فسمعتُهُ يُناديني بِصَمْتٍ إنَّني ظامِئٌ.. اسقِني قليلاً من دمِكَ؟ لأُنبِتَ لكَ شجرةَ الحُرِّيَّةِ...

وضمَّ قبضَتَهُ إلى صدرِهِ وأَطبقَ جَفنيْهِ وغَمْغَمَ: أيَّتُها الشَّجرةُ ضُمِّيني إليكِ أنتِ التي لن تنامي يوماً على نقَّالةٍ.

لا تزالُ شجرةُ البُطْمِ منتصبةً صَامتةً، وتلُّ العزيزيَّاتِ لمْ يَفقدْ سوى قبضةِ ترابٍ أَطبقَ عليها والدي بأصابِعِهِ وظلَّ يَضمُّهَا إلى صدرِهِ الدَّامي وروحُهُ تصعَدُ إلى السَّماءِ.

التقليد الأعمى:

الغراب والعصفور

(يُعرضُ في دليل الأنشطة)

رأَى الغُرابُ يومًا عصفورًا والنَّاسُ تُقدِّم لَهُ الحُبوبَ والماءَ، ويَنظرُونَ إليهِ في سرورٍ ومتعةٍ، ويُطربون عندما يسمعونَ صوتَهُ عندَ الصباحِ وهو يغرِّدُ فوقَ الشَّجرِ، فقالَ لنفسِهِ: لماذا يُحِبُّ النَّاسُ العصفورَ؟ ويُسَرُّون من منظرِهِ وشكلِهِ وحركاتِهِ، ويطربون لصوتِهِ، ولا يهتمُّونَ بي ويبعدونني، ويسخرونَ من سوادي، مَعَ أنَّني لَسْتُ أقلَّ فائدةً من العصفورِ، فأنا من الطُّيورِ الّتي تنقِّي الأرضَ من الدِّيدانِ التي تأكلُ الزَّرعَ، فأحفظُ لهم بذلك محاصيلَهَم، وهو من الطُّيورِ التي تُتلِفُ الزَّرعَ فتأكلُهُ قبلَ أنْ يَنضَجَ أو عندَ نضجِهِ، وبذلك يَخسرُ النَّاسُ كثيراً بسببِ العصافيرِ، وليس فيه إلا شكلُهُ وخفَّةُ حركاتِهِ؛ فهل هما سِرُّ حُبِّ النَّاسِ لهُ؟

وفكَّرَ كثيراً ليجعلَ نفسَهُ مقبولاً عندَ النَّاسِ، فقالَ لنفسِهِ: أغيِّرُ لوني الأسودَ الّذي يتشاءَمون بهِ، وصوتي الّذي ينفرون من سَماعِهِ، وحركاتي الثَّقيلةِ، فأكونُ خفيفَ الحَركةِ أنتقلُ من غُصنٍ إلى غُصنٍ بخفَّةٍ تَلفِتُ أنظارَهم إليَّ.

وصَبغَ لونَهُ الأسودَ باللّونِ الأبيضِ فصارَ غُراباً مشكَّلَ الألوانِ، وغَيَّرَ من صوتِهِ ليكونَ كصوتِ العصفورِ، فكانَ صوتًا غريبًا، فلا هو بالصَّوتِ المعروفِ عن الغرابِ، ولا بالصَّوتِ المعروفِ عن العصفورِ، وصار يتنقَّلُ بخفَّةٍ ورشاقةٍ محاولاً تقليدَ العصفورِ.

ورآهُ النَّاسُ فَسَخِرُوا من لونِهِ وضحكُوا استِهزاءً بصوتِهِ، وقَهقَهُوا سُخريةً من حركاتِهِ التي لا تناسبُ جسمَه.

وهكذا دفعَ التَّقليدُ الأعمى هذا الغرابَ كي يضعَ نفسَهُ في موقِفٍ لا يناسبُهُ؛ أرادَ أنْ يقلِّدَ العصفورَ قبلَ أن يفكِّرَ في أنَّ للعصفورِ طبيعتَهُ، وأنَّ العصفورَ خلقَهُ اللهُ هكذا ليكونَ أحياناً للزِّينةِ والاستمتاعِ بصوتِهِ وخفَّةِ حركاتِهِ، ولم يَخلُقِ الغُرابَ ليكونَ كالعصفورِ، ولكنَّهُ خلقَهُ لوظائفَ أخرى.

لقد مسخَ الغرابُ طبيعتَهُ بهذا التَّقليدِ، فلم يبقَ كما كانَ غُراباً يَعرِفُ النَّاسُ شكلَهُ وصوتَهُ وعمَلَهُ في تنقيةِ الأرضِ، ولم يُصبحْ عصفوراً كما أرادَ.

وكثيرٌ من النَّاسِ يقلِّدونَ غيرَهم فيما لا يوافقُ طبيعتَهُم، فيفقدونَ شخصيَّاتِهم؛ وكذلك الأمَمُ والشُّعوبُ إذا قلَّدتْ غيرَها بلا تفكيرٍ ووعيٍ ضاعَتْ بينَ ضرورَةِ الانفِتاحِ على العالَمِ وبين التَّقليدِ الأعمى، فكانَ فعلُها كَفعلِ ذلك الغراب.

أوغاريت

(١)

تُعَدُّ سوريَةُ من أغنى بلادِ العالمِ بالمواقعِ الأثريَّةِ، وقد عَرَفَتْ على مَدَى التَّاريخِ جميعَ الحضاراتِ الكُبرى الّتي شَهِدتها بلادُ البحرِ المتوسِّطِ في العصورِ القديمةِ، فإذا كانتِ اليونانيَّةُ والرُّومانيَّةُ والبيزنطيَّةُ والفرنجيَّةُ والعربيَّةُ تشكِّلُ أبنيةً لهَا منَ العناصرِ الهندسيَّةِ وفنونِ الزَّخرفةِ ما يثيرُ إعجابَ النَّاظرِ إليها، فإنَّ هناكَ نوعاً آخرَ من الآثارِ وهو الأنقاضُ العريقةُ في القِدَمِ التي كانتْ مدفونةً تحتَ الأرضِ، وهذه الأنقاضُ لم تظهرْ إلَّا نتيجةَ حفريَّاتٍ منظَّمة.

ومنْ أهمِّ هذهِ الآثارِ المُكتَشَفةِ موقعُ رأسِ الشَّمرةِ، حيثُ ترقدُ مدينةُ أوغاريتَ القديمةِ، فقد عُثِرَ في مدينةِ رأسِ الشَّمرةِ على قطعٍ فنِّيَّةٍ، وكتاباتٍ قديمةٍ، وهذه الأخيرةُ أسفرتْ عن معلوماتٍ غايةٌ في الأهميَّةِ عن الحضارةِ الّتي عرَفَها الشَّاطِئُ السُّوريُّ في الماضي البعيدِ.

ويقع تلُّ رأسِ الشَّمرةِ على بعدِ كيلو مترٍ واحدٍ تقريباً شرقيّ البحرِ الأبيضِ المتوسِّط ، وعلى بعدِ عَشَرَةِ كيلو متراتٍ شماليَّ مدينةِ اللاذقيَّةِ، والحفريَّاتُ الّتي أُجريَتْ في الطَّبقةِ العُليا منْ تلِّ رأسِ الشَّمرةِ تُعطينا فكرةً واضحةً عَنْ حضارةِ أُوغاريت خلالَ القرنينِ الرَّابعَ عشرَ والثَّالثَ عشرَ قبلَ الميلادِ.

(٢)

كانتْ أوغاريتُ مرفأً ذا حركةٍ تجاريَّةٍ على نطاقٍ واسعٍ ، فأدَّى ذلك إلى أن يكون بينَ سُكَّانِها أُناسٌ ينتسبونَ إلى شعوبٍ مختلفةٍ. أمَّا لغةُ هذهِ المدينةِ الَّتي كانَ يتكلَّمُها معظمُ سكَّانِها فهي اللغةُ الأُوغاريتيَّةُ، الّتي كانتْ مكتوبةً بالأحرفِ المسماريَّةِ، وهي مؤلَّفةٌ مِنْ ثلاثينَ حرفاً، وهي أقدمُ أبجديَّةٍ معروفةٍ حتَّى هذا التَّاريخِ، فقد اكتُشِفَتْ لوحةٌ فخاريَّةٌ صغيرةٌ تحملُ أحرفَ أبجديَّةِ رأسِ الشَّمرةِ الثَّلاثين بالتَّرتيبِ الشَّائعِ أيَّامَ أوغاريتَ، وتَبيَّنَ أنَّهُ التَّرتيبُ نفسُه الّذي نراهُ الآنَ في الأبجديَّةِ اليونانيَّةِ والأبجديَّةِ العربيَّةِ: (أبجد، هوز، حطّي، كلمن،...).

وتشبهُ هذه اللُّغةُ اللُّغةَ العربيَّةَ شِبْهاً كبيراً، ليسَ من جهةِ المفرداتِ فحسب، بل في بعضِ التَّعابيرِ وفي صياغةِ الجملِ، إذ إنَّ قواعدَها تطابقُ قواعدَ اللُّغةِ العربيَّةِ على العموم. أمَّا من جهةِ المفرداتِ فقد تبيَّنَ أنَّها تحتوي على ما يقاربُ سبعمئة كلمةٍ نراها نَفسَها في اللُّغةِ العربيَّةِ مثل (نهر، أب، أخ، حلم، كرم،...).

ومن أهمِّ النُّصوصِ الّتي عُثِرَ عليها مجموعةٌ من قصائدَ جميلةٍ مكتوبةٍ باللُّغةِ الأوغاريتيَّةِ، وقد رتَّبها العلماءُ على شكلِ أساطيرَ وملاحمَ، وتُرجِمَتْ إلى عددٍ كبيرٍ من اللُّغاتِ ، ولا تزالُ تَشْغَلُ العلماءَ بسببِ الآفاقِ الجديدةِ الّتي فتحَتْها.

فطنةُ أبي بكرٍ الرّازي

يُحكَى أنَّ رجلاً من بغدادَ كانَ ينفُثُ الدَّمَ، فاستدعى أبا بكرٍ الرَّازيّ الطَّبيبَ المشهورَ بالحِذْقِ، فأراهُ ما ينفُثُ ووصفَ له ما يجِدُ، فنظرَ إلى نبضِهِ وإلى إناءِ الماءِ الذي يحملُه، واستوصفَ حالَهُ، فلم يَقُمْ لهُ دليلٌ على سُلٍّ ولا قَرحةٍ، ولم يَعرِفِ العلَّةَ، فاستنْظَرَ العليلَ لينظرَ في حالِهِ، فاشتدَّ الأمرُ على المَريضِ، وقالَ : هذا يأسٌ لي من الحياةِ لحِذقِ الطَّبيبِ وجهلِهِ بالعِلَّة، فزادَ ألمُه، ففكَّرَ الرَّازيُّ، ثمَّ عادَ إليهِ، فسألَه عن المياهِ الَّتي شربَ مِنها. فقالَ: من حوضٍ كبيرٍ يجتمعُ فيه الماءُ، فثَبُتَ في نفسِ الرَّازي بحدَّةِ خاطرِهِ وجَودَةِ ذكائِهِ أنَّ علَقَةً كانَتْ في الماءِ، وقد استقرَّتْ في مَعِدَتِه، وذلك الدَّمُ مِنْ فعلِها.

فقالَ: إذا كانَ في غدٍ عالجْتُكَ، ولكنْ بشرطِ أَنْ تأمُرَ غِلمانَكَ أَنْ يطيعوني فيكَ بما آمرُهمْ. قالَ: نعم، فانصرفَ الرَّازيُّ، فجمَعَ مِكيالَين من طُحْلُبٍ، فأحضرَهُما في غدٍ مَعَهُ، فأراهُ إيَّاهُما، ثمَّ قالَ له: ابْلَعْ جَميعَ ما في هذين المِكيالَين، فبلَعَ شيئًا يسيرًا، ثمَّ وقفَ. قال: اِبْلَعْ. قال: لا أستطيعُ، فقالَ للغِلمانِ: خذوهُ فثبِّتوه، ففعلوا وفتحُوا فاهُ، فأقبلَ الرَّازيُّ يضعُ الطُّحلُبَ في حلقِهِ ويكبِسُهُ كبسًا شديدًا ويطالِبُه ببَلْعِهِ ويتهدَّدُه بأنْ يضرِبَهُ إلى أَنْ بلَّعَهُ أحدَ المكيالَين كاملاً، والرَّجلُ يستغيثُ ويقولُ: الآن سأتقيَّأُ، فزادَ الرَّازيُّ فيما يكبِسه في حلقه، فغلبَهُ القيْءُ وأخرجَ ما في جوفِهِ، فتأمَّلَ الرَّازي ما أخرجَهُ فإذا فيه عَلَقةٌ، وإذا هي لمَّا وصلَ إليها الطُّحلُبُ قَرُبت إليه وتَرَكَتْ مَوضِعَها، فالتفَّتْ على الطُّحْلُبِ، ونهضُ الرَّجلُ مُعَافىً.